الهرطقات : قديماً وحديثاً

لقد درسنا حتى الآن جميع النقاط الرئيسية اللازمة للحصول على فهم صحيح لشخص ربنا يسوع المسيح . فهو الله والإنسان في طبيعتين متميزتين، ولكن في شخص واحد وإلى الأبد . كما رأينا لمرات عديدة لماذا تعد هذه العقيدة مبدأ جوهريا في الإنجيل . فلا غرابة أن نكتشف أن التاريخ شهد محاولات متكررة لإنكار هذا الحق العظيم . فالشيطان يعلم جيدا أنه لو أمكنه التشكيك في هذا الحق ، فسوف يتمكن من القضاء على الإنجيل .

لذلك كان من الحكمة أن يتضمن هذا الكتاب حصراً موجزاً عن الأخطاء البارزة التي وقع فيها البعض ، كذلك إلقاء نظرة على الهجمات الحديثة لما يعلمه الكتاب المقدس بخصوص شخص المسيح . وذلك سوف يساعدنا على تجنب الوقوع في ذات الشراك ، وسوف يعمل على تهيئتنا لتدعيم هذا الحق في العالم الحديث . ويجدر بنا أن نذكر أن من يتناسى الماضي يحكم عليه بأن يكرره ثانية . ودراستنا للمفاهيم الخاطئة والهرطقات سوف يشحذ إيماننا ويجعلنا أكثر تدقيقاً في إعلاننا للحق الإلهي في هذه الأيام ؛ التي استعادت فيها الضلالات نشاطها ؛ وتضاعفت أعداد المذاهب المنحرفة . ومما لاشك فيه أن تقديم إعلانات الله بأسلوب غير دقيق سوف يقود الناس إلى الضلال ، وفصل كهذا الذي نحن بصدده كفيل بأن يقي من هذا الخطر .

يمكن تقسيم الضلالات بشأن شخص المسيح إلى ثلاث مجموعات أساسية. الأولى ، إنكار العنصر الإلهي في شخصه ، وادعاء أنه كان مجرد إنسان . والثانية إنكار حقيقة وكمال طبيعته البشرية . وأخيراً إنكار اتحاد الشخص المتضمن هاتين الطبيعتين . وسوف نلقي نظرة على الأمثلة الرئيسية لهذه الضلالات الثلاثة ، ثم نختم الفصل بملخص لما قاله بعض اللاهوتيين المحدثين بخصوص ربنا يسوع المسيح .

أولا : إنكار لاهوته :

ترسخ لاهوت ربنا بقوة بين المسيحيين الذين جاهروا بإيمانهم في القرون الثلاثة الأولى للكنيسة ، وكانوا يعبدونه في كل مكان باعتباره الله . وكان هذا الاعتقاد عاماً وراسخاً ؛ حتى أنه لم يكن هناك حاجة لأي توضيح غير الذي ورد بالكتاب المقدس . ولم تظهر توضيحات أخرى حتى بدأ هجوم شامل على لاهوته .

لابد أن نحترس من الافتراض القائل بأن توضيح لاهوت ربنا ، هو الذي خلق الإيمان به كإله ؛ فحين لم يواجه هذا الإيمان أية تحديات ، لم يكن هناك ضرورة لأية توضيحات أو تعريفات ، وهكذا ظل الحال في الثلاثة قرون الأولى من تاريخ الكنيسة .

وفي السنوات الأولى لم ينكر لاهوت المسيح سوى طائفة (Ebionites) وهم جماعة اليهود الغنوسيين المسيحيين ، الذين اعتبروه مجرد إنسان . وفي منتصف القرن الثاني ، كان لـ(Elkesaites) صوت مسموع في سوريا ؛ وهم أيضا جزء من هذه الطائفة . وحاد بعض آخر عن الفكر المستقيم في القرون الأولى أشهرهم اثنان علمانيان من روما ، أحدهما يدعى ثيودوتوس : آرتيمون (توفي عام 180)، والآخر بولس الذي من (ساموساتا) Samo Sata والذي كان اسقفاً لأنطاكية في الفترة من (260 - 270 وقد عزلا بواسطة المجمع عام 269) .

أقر معظم هؤلاء بأن للمسيح ميلاداً خارقاً للطبيعة ، ولكن مع ذلك أصروا أنه مجرد إنسان تميز بقوة إلهية خاصة . وكانوا يعلمون بأنه اختبر " تأليها نسبياً " في نهاية الأمر ، كمجازاة له لحياته الأرضية السامية وانجازاته.

في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ، ظهرت هرطقة كيرينثوس (Cerinthus) الشهير . هذا أصر على أن يسوع لم يكن سوى إنساناً ، ابناً لمريم ويوسف ، وأثناء معموديته جاء عليه ، المسيح أو " اللوجوس " في هيئة حمامة ، مما

رفعه إلى منزلة ابن الله ، واعطاه القدرة على عمل المعجزات . ولما صلب ، ترك " اللوجوس " الإنسان يسوع ليتألم وحده . ثم مات ولم يقم ثانية .

لم يتسبب كل هؤلاء الأفراد والجماعات سوى في بعض الموجات الخفيفة على السطح الهادئ . فلم يعكر أي منهم سلام الكنيسة أو نقاءها . لكن الأمر اختلف بظهور آريوس ، كاهن الأسكندرية ، في بداية القرن الرابع، الذي أحدث انفجاراً في الكنيسة . فقد هزت رياح تعاليمه السطح الهادئ بشدة وحولته إلى عاصفة حقيقية مدمرة . فقد زعم آريوس أن الله - شخص أبدي واحد ؛ وأنه خلق ابنه الوحيد مخلوقه الأسمى على صورته ، وأصر آريوس على أن الابن كان إلها بمعنى ثانوي أو هامشي . فلم يكن ابن الله أزليا - وبالطبع لم يكن منذ الأزل لله (لدى آريوس) نفس مفهوم الآب الذي لدينا - وقد خلق الكل بواسطة الابن ، الذي بعد زمن طويل أصبح إنساناً في شخص يسوع الناصري .

لمدة لا بأس بها من الزمان ؛ بدا وكأن هذه البدعة الآريوسية سوف تقهر الكنيسة في العالم كله . ولم يقف ضد آريوس سوى اثناسيوس بمفرده ؛ داعياً إلى الحق الذي في كلمة الله وإلى عقائد المؤمنين الأولين . ومن إحسانات الله أن الحق كانت له الكلمة العليا . فقد جرم مجمع (نيقية) في عام 325 البدعة الآريوسية وأكد أن الرب يسوع المسيح هو " إله من إله " مولود غير مخلوق ومساو للآب في الجوهر . ولو أن الآريوسية انتصرت لقضى على المسيحية الكتابية .

بعد المعارضة الآريوسية ، ولعدة قرون تالية ، لم ينكر أحد لاهوت المسيح علانية من داخل الكنيسة ، ومع ذلك لم تمت الآريوسية نهائياً ، وظهرت من آن لآخر عبر التاريخ . فأولئك الذين يسمون أنفسهم " شهود يهوه" عبارة عن صورة حديثة من الآريوسية ، إذ يتمسكون تماماً بما قاله آريوس بخصوص شخص المسيح . ومعظم المذاهب المنحرفة الحديثة الأخرى تنكر لاهوت المخلص علانية . ولابد أن نحترص كل الحرص من تعاليمهم ، متذكرين كيف تتسلل الضلالات إلى مركز الحياة في الكنائس . ولم يكن لآريوس أن يحدث كل هذا التأثير ، لو لم يمهد " أوريجين " (185 - 255) السبيل - عن غير قصد - حين علم أن الابن مع أنه ممجد وقدوس ، إلا أنه ليس في منزلة

الله الآب . وبذلك غرس فكرة وجود درجات في اللاهوت ، مما سهل لآريوس المضي قدماً . ولم يكن لفكر أوريجين - الذي عرف مؤخراً بشبيه الآريوسية - أن ينطلق ما لم يشكك ترتليان (من حوالي عام 160 - 240) في مساواة ابن الله بالآب . وهكذا نرى أن خطأه الهين - نسبياً - مهد الطريق إلى ضلالات خطيرة في السنوات التالية ، مما يوضح لنا الأهمية القصوى للتدقيق في تعبيرات عقائدنا .

حتى المعروفين باسم (Ebiontes) لم ينتهوا تماماً . فقد تبنى فكرهم القائل بأن يسوع لا يعدو كونه إنسانا، جماعة تسمى السوسينيين(Socinians)، الذين انتشروا في أوربا في القرن السادس عشر ، وكذلك أيضا جماعة (الموحدين) الذين مازالوا موجودين حتى يومنا هذا . في القرن التاسع عشر ، حين هوجم الإنجيل ، وأنكرت المعجزات ، وجد هذا الفكر طريقه إلى معظم المذاهب المسيحية الرئيسية . كما يوجد عدد ضخم من المتحررين أو العصريين " الليبراليين " أو "modernist" الذين يؤمنون بهذا الفكر ، وقد أصبح لبعضهم صوت مسموع في الآونة الأخيرة . وهذا صحيح بصفة خاصة بالنسبة لهؤلاء المعروفين بالحركة المسكونية ، وما يعبرون عنه في هيئاتها المختلفة .

ثانياً : إنكار ناسوته :

في الواقع كانت كل الطوائف التي أنكرت حقيقة الطبيعة البشرية للمسيح في الكنيسة الأولى من أصل غنوسي (Gnostic) . فقد ظهر هؤلاء الغنوسيون منذ العصور الأولى ، وانتشروا في العالم المعروف وقتئذ مع بداية القرن الثاني . وهؤلاء اعتبروا أن الله إنما هو روح واحد وشخص واحد ، ومنه انبثقت كائنات أقل لاهوتية منه ، وعن طريقها استمد اتصاله بالعالم . وأطلق على هذه الكائنات اسم (Aeons) ، وكان المسيح أعظم هذه الكائنات - كانت هذه الكائنات ضرورية، لأن المادة - الكائنة بذاتها - شريرة في جوهرها ، لذلك لا يمكن لله أن يكون على اتصال مباشر بها .

نما التعليم الغنوسي جداً بين الـ (Docetoe) ، الذين ازعجوا الكنيسة في القرن الرابع . ولإيمانهم بفساد المادة بجملتها ، أعلنوا أن طبيعة المسيح البشرية - الجسد والروح - ما هي إلا مجرد طيف أو خيال . لقد بدا وكأنه إنسان، ولكنه لم يكن كذلك . فلم

يكن لبشريته وجود مادي . لم يكن أكثر من ظهور أو خيال من خلاله أظهر اللوجوس ذاته للجنس البشري . إنه لم يولد ولم يمت . لقد ساد هذا الاعتقاد وازداد انتشاره ، وشكل تهديداً خطيراً على المسيحية لفترة طويلة من الزمن ، كما فعلت الآريوسية ، وإن كان من زاوية مختلفة تماما . ولكن قضى عليه في النهاية ، وان كان قد استمر يعلم حتى العصور الوسطى بواسطة بعض الاشخاص مثل بيتر اللومباردي (1100 - 1164) .

جاء هجوم على كمال طبيعة المسيح البشرية في القرن الرابع من شخص يدعى (أبو لينياريس) الذي كان أسقفاً للاوديكية (حوالي عام 370) . ومع أنه بدا أرثوذوكسيا في كل النقاط الأخرى وكان معتبراً في تعاليمه ، إلا أنه استمد فكره عن التجسد من أفلاطون أكثر منه من الكتاب المقدس . لقد علم أن الإنسان يتكون من جسد (soma) ، ونفس(psyche) ، وروح إنسانية (pneuma) ، كلها مشتملة في شخص واحد . وعن المسيح قال : " مع أنه كان له جسم بشري حقيقي ونفس، إلا أن اللوجوس الإلهي أو الكلمة حل محل الروح الإنسانية (pneuma) . لقد قبل أبوليناريس لاهوت المسيح تماماً ، لكنه جزم بأن اللاهوت حل محل الروح الإنسانية العاقلة . وحاول أن يبرهن على أن هذه الروح الإنسانية هي مركز الخطية ، وبالتالي لا يمكن لابن الإنسان المنزه عن الخطية أن يمتلك مثل هذه الروح .

بهذه الطريقة أنكر أبوليناريس أن للمسيح طبيعة بشرية كاملة . لكن لو لم يأخذ المسيح طبيعتنا ، كيف كان له أن يفدينا ؟ إن افتراضات أبوليناريس تجاوزت بالتأكيد صعوبة افتراض ملازمة روحين مدركتين (كل منهما حرة الإرادة) في شخص واحد ، لكنها أفسدت الحق الواضح الذي سبق ودرسناه ، أن المسيح إنسان كامل وإله كامل في وقت واحد . وأنكرت افتراضاته أيضا أن لنا مخلصاً " مجرب في كل شيء مثلنا ... " (عبرانيين 4 : 15) . أدينت الأبولينارية - بحق - بواسطة مجمع القسطنطينية في عام 381 .

ومما يؤسف له ، أن الادانة بواسطة مجمع لا تعني زوال البدعة . صحيح أنه لم يعد هناك سوى قلائل الذين ينكرون طبيعة المسيح البشرية الحقيقية منذ مجمع قسطنطينية .

ولا وجود لهذه البدعة ، ولكن ليس تماماً . فلازالت هيئة Christian Science تتمسك بها . فقد كتبت ماري بيكر إدى في كتاباتها المتنوعة أن : المسيح غير مادي ، بل هو روحي ، وحركتها تنكر حقيقة جسد المسيح وكمال بشريته . لابد أن نذكر أنفسنا بأن فكراً مثله تماماً دحضه الرسول يوحنا حين كتب يقول " وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله . وهذا هو روح ضد المسيح ، الذي سمعتم أنه يأتي والآن هو في العالم " (1يوحنا4 : 3) .

**** المنكرون لشخصه الواحد أو لطبيعتيه :***

لقد شاهد تاريخ الكنيسة من آن لآخر البعض الذين كانوا قاطعين في التنبير على أن طبيعتي ربنا كانتا متميزتين ولم يحدث أي تغيير أو تعديل فيهما ، حتى أنهم ألقوا بحقيقة وحدة شخصه إلى غياهب الظلام . ومن الصعب أن نطلق على هذا الاختلال في التوازن لفظ بدعة ، إذ ليس هناك إنكار محدد لأي حق كتابي . لكنه بالتأكيد خطأ بالغ الخطورة .

لقد أصبحت هذه النزعة بارزة في اللاهوت المنبثق من أنطاكية في القرنين الرابع والخامس ، واضحة نتيجة لكتابات ثيودور الموبسيوستي . ووصلت الأمور لذروتها عندما أصبح نسطوريوس - راهب انطاكية - بطريركا على قطسنطينية . ففي سعي نسطوريوس للدفاع عن ناسوت ربنا يسوع المسيح ، أظهر استهجانه لعبارة " والدة الإله " التي أطلقت على العذراء مريم ، مؤكداً أنها ولدت المسيح وليس الله . وقد استطاع أن يضع هذا التمييز لأنه كان يعتقد أن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية يجب أن تكونا متميزتين ومنفصلتين . كانت شخصية ربنا مزدوجة وكانت طبيعتاه متميزتين ؛ حتى أن نسطوريوس في النهاية اعتبره شخصين ، أحدهما إلهيا والثاني بشريا ، وليس شخصا واحدا ذا طبيعتين ، واعتقد أن لاهوته سكن في ناسوته (جسده) ، لكن لم يتحد الاثنان بأية حال . لكن كيرلس الذي من الاسكندرية الذي عارض نسطوريوس ، تمسك بالعقيدة المستقيمة ، القائلة بالاتحاد التام للطبيعتين المتميزتين في المسيح ، وقد أدان مجمع أفسس نسطوريوس في عام 431 ، وبالتالي أدينت مدرسة أنطاكية كلها ، التي كان يمثلها نسطوريوس .

سمع ، فيما بعد ، رأي آخر في مدينة قسطنطينية مضاد تماماً لما سبق . قاد أوطاخي (Eutyches) - الذي كان رئيساً لأحد الأديرة - معارضة شديدة لآراء نسطوريوس ، بعد أن وجد أن آثارها لم تختف بعد . وبمعارضته تلك ، وقع في خطأ الخلط بين طبيعتي المسيح . فقد تمسك بأن للمسيح طبيعة واحدة، إما بامتزاج الطبيعتين معاً ، أو بابتلاع الطبيعة الإلهية للطبيعة البشرية . وقد كان مخطئاً في اعتقاده بأن كيرلس كان حليفاً له ، وقد أنكر بصفة خاصة وجود طبيعتين للمسيح . وقد أدين هو وجماعته - الذين أطلق عليهم مجمع خلقيدونية عام 451 ، مذهب القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة (mono physites) .

ورغم إقصائهم عن الكنيسة الأرثوذكسية ، إلا أن أنصار مذهب الطبيعة الواحدة ؛ استمروا لفترة من الزمن بعد ذلك . وفي محاولة منه ليوحدهم مع الاتجاه العام للمسيحية ، اقترح الامبراطور هرقل حلاً وسطاً : فلزاماً عليهم أن يتبنوا إقرار خلقيدونية ، مع بعض التنقيح الذي يتلخص في أنه نتيجة للاتحاد الأقنومي ، فانه في المسيح توجد قوة واحدة إلهية بشرية وإرادة واحدة.

وقد أطلق على من تمسكوا بهذا الفكر اسم (monothelites) . وفي عام 681 فإن المجمع المسكوني السادس للقسطنطينية وبالتعاون مع أسقف روما عارضهم ، وتبنى العقيدة المستقيمة القائلة بأنه كان في المسيح قوتان وإرادتان، ولكنهم أوضحوا أنه لابد من اعتبار الطبيعة البشرية خاضعة للطبيعة الإلهية .. وبهذا القرار ، أغلق ملف المعتقدات التي تؤمن بها كل الكنيسة المسيحية بخصوص شخص ربنا يسوع المسيح .

ولكن حتى هذا لم يمنع ظهور هرطقة أخرى أكثر خطورة . تلك كانت بدعة فيلكس ، أسقف (أدرجيللا) ، والتي تعرف الآن باسم (adoptionism) . ومثل كل الهرطقات الأخرى ، ظهرت هذه الأخيرة لعدم قبول إعلانات الكتاب المقدس البسيطة ، وكحل للمشكلات التي ظهرت في الإعلانات الكتابية ولكن باستخدام عقول بشرية . لقد سعى فيلكس للحفاظ على وحدة شخص المسيح بافتراض أنه مع كونه ابن الله بسبب طبيعته

الإلهية ، لكنه باعتبار طبيعته البشرية كان بالتبني فقط ابن الله . ولم تبدأ هذه البنوة بالتبني عند الميلاد الطبيعي للمسيح ، ولكن عند معموديته ، وبلغت حد الكمال عند قيامته . لقد كان ميلاداً روحياً ذلك الذي جعل يسوع الإنسان ابن الله بالتبني . وقد كانت الكنيسة سريعة في اكتشاف خطأ هذا الرأي تبعاً لما جاء في العهد الجديد . فلم يحافظ هذا التعليم الجديد على وحدة شخص المسيح كما إدعى ، بل على العكس ، عرض هذا الحق للخطر . وقد أدين بصفة حاسمة من قبل سنودس فرانكفورت عام 794 .

**** القرن التاسع عشر :***

لم تقدم العصور الوسطى أية تعريفات أخرى لعقيدة شخص المسيح . وإن حاد بعض الأشخاص أو الجماعات من حين لآخر عن الرأي المستقيم ، ولكن التعريفات الموجودة كانت كفيلة بفضح أخطائهم . وكانت هذه الانحرافات إما إحياءً أو تحويرا في الهرطقات التي سبق مناقشتها .

ولم تتغير الأمور في عصر الإصلاح . فمع أن الأقطاب تنافرت في العديد من النقاط ، إلا أن كلاً من كنيسة روما وكنائس الإصلاح أقروا بالعقيدة الخاصة بشخص المسيح التي صيغت في خلقيدونية . ولم يبرز في تلك الحقبة سوى الفكر اللوثري الذي ناقشناه في الفصل الثامن .

في بداية القرن التاسع عشر حدث تحول كبير في دراسة شخص المسيح. فقد شهد القرن الماضي اهتماماً متزايداً بدراسة " يسوع الذي ظهر التاريخ " لقد ميزوا بين " يسوع التاريخي " الذي عاش بالفعل كما أوضحته الأناجيل ، وبين " مسيح علم اللاهوت" الذي أوضحته إقرارات الإيمان الكنسية . فقد تضاءل شيئا فشيئا تفكير العلماء عن مسيح خارق للطبيعة، وبدأوا في الحديث عن يسوع بشري. لقد تخلوا عن عقيدة الطبيعتين وكتبوا عن إنسان إلهي . وبرز إسما " شليرماخر وهيجل " Schliermacher & Hegel " في هذا التطور الجديد . فلم يكن المسيح بالنسبة لها أكثر من معلم بشري ، مع كونه متفرداً ، إما بسبب إحساسه الكامل بالاتحاد مع اللاهوت ، أو بسبب ملامح الوحدانية التي توجد بين الله والإنسان . وقد بينت لنا الفصول الستة الأولى من هذا الكتاب

مسيحا يختلف جوهرياً عن هذه التخمينات البشرية . فالمسيح الذي كتب عنه الوحي الإلهي في الإنجيل هو نفسه المسيح اللاهوتي الذي ذكر في إقرارات الإيمان. وما كان من الكنيسة إلا أنها جمعت كل خيوط المعلومات الكتابية وصاغتها في تعريف لما تظهره كلمة الله في مجملها .

وظهرت أيضا خلال القرن التاسع عشر النظرية التي عرفت باسم (kenosis) أو نظرية التخلي . وكانت محاولة جديدة تماماً لإعادة صياغة عقيدة شخص المسيح . وقد أشتق الاسم مما جاء في رسالة فيلبي 2 : 7 التي تعلم أن المسيح " أخلى نفسه ، آخذا صورة عبد " . وقد فسر أصحاب هذه النظرية تلك الكلمات على أنها تعني أن " الكلمة " أو " اللوجوس " تغير حرفيا إلى إنسان . لقد نحى جانباً قوته الكلية ، وعلمه بكل شيء ، ووجوده في كل مكان ، حتى إدراكه بلاهوته نحاه جانباً ، ثم ازداد حكمة وقوة خلال حياته البشرية ، حتى عاد في النهاية إلى أن يصبح الله . لقد ظهرت نظرية التخلي هذه (kenosis) في صور متباينة ، ولاقت قبولاً وشعبية كبيرة ، أولاً في ألمانيا ثم في انجلترا . ولازالت حية في بعض الدوائر حتى يومنا هذا . وهي ترمي إلى الحفاظ على حقيقة ناسوت المسيح ؛ والتأكيد على عظيم إتضاعه لكونه أصبح فقيراً من أجلنا .

على أية حال ، هذه النظرية بها عيوب خطيرة ، ولا يمكن أن تقبل من هؤلاء الذين يخضعون لسلطان الكتاب المقدس . فالكلمة " أخلى نفسه " في فيلبي 2 : 7 ، أستخدمت أربع مرات في العهد الجديد في (رومية 4 : 14 ، 1كورنثوس1 : 17 ، و 9 : 15 ، 2كورنثوس 9 : 3) بمعنى تعطل ، لكن لم تعني أبداً " إخلاء " . وصحيح اللغة يقودنا إلى ترجمة العدد الذي نحن بصدده تماماً كما جاء في ترجمة (King James) الإنجليزية " جرد نفسه من كل صيت حسن ، آخذا صورة عبد " . وقد جاءت هذه الكلمات مماثلة تقريباً في الترجمة الأخرى المعروفة باسم (Authoized Version) . تعلمنا كلمات هذا العدد أن المسيح لم يصر على امتيازه اللاهوتي ، لكن جعل من نفسه شخصاً لا يعتد به ، وأخذ صورة عبد . لم يُنح جانباً وجوده في صورة الله (عدد6)، ولكنه نحى مكانته المساوية لله ، وهذا ما يؤكده هذا العدد فهو لم يكف عن أن يكون ما كان عليه دائماً ؛ لكنه استبدل منزلته بأخرى . وبدلاً من أن يمارس حقه في السيطرة ، إرتضى بأن

يضع نفسه في حالة خضوع حيث دعى للطاعة . ومما لاشك فيه أن هذا الخضوع المادي أدى بربنا أن يقيم علاقات جديدة مع الآب والروح القدس ، لكنه لم يغير بأية حال من لاهوته الجوهري .

تأسست حركة " التخلي " على مذهب وحدة وجود الله ، الذي لا يعتبر أن هناك اختلافا مطلقا بين الله والإنسان ، وأن هناك إمكانية لتحول أحدهما إلي الآخر . وانمحى الحد الكتابي الفاصل بين الاثنين . وفيه أيضا تعارض واضح في الحق البين المعلن أن الله لا يمكن أن يتغير (ملاخي 3 : 6، يعقوب 1 : 17) . ليس ذلك فقط ، لكنه يهدم عقيدة الثالوث . فالابن المتجسد ، الذي أخلى ذاته من الخصائص الإلهية ، لا يمكن أن يحتفظ بكيانه اللاهوتي في حياة الثالوث . وتقع هذه الحركة في نفس خطأ اللوثريين ، الذي سبق مناقشته ، حيث يظن الطرفان أنه يمكن انتزاع الصفات والخصائص الإلهية ، مع الابقاء على الكيان اللاهوتي بلا أدني تأثير . وهم بذلك يغفلون تعليم الكتاب المقدس بأنه كانت لربنا الخصائص الإلهية خلال الفترة التي سجلت في الأناجيل . ألم نر أنه كان الله حقا وبالتمام ؟ بالاضافة إلى ذلك ، لم تحقق هذه النظرية الغرض التي صيغت من أجله . فكيف يتأكد ناسوت المسيح عن طريق الاعتقاد بأن " لوجوسا " مصغراً أخذ مكان النفس البشرية ؟ فالمسيح لدى جماعة (التخلي) لا هو الله ولا هو إنسان ، ولكن ، وكما قال ب.ب وارفيلد " مجرد لاهوت متقلص " ، بعيدا كل البعد عن الله - الإنسان المجيد الماثل أمامنا في الكتاب المقدس .

ظهرت نظرية أخرى في القرن التاسع عشر ، تتعارض مع كلمة الله ، وهي نظرية " التجسد التدريجي " (gradual incarnation) ، والتي أرادت أن تتفادى أخطاء نظرية " التخلي " (Kenosis) ، لكن لتعطي لتجسد المسيح حقه ومنزلته . وتبعاً لهذه النظرية ، فعملية التجسد لم تتم عند الحبل بيسوع ، بل كانت تدريجية حيث اتحد " اللوجوس " اتحاداً مطرداً - بالإنسان المتفرد والممثل للجنس البشرى ، يسوع المسيح - وبلغ هذا الاتحاد كماله عند القيامة، وكانت نتيجته الله - الإنسان ذا الإرادة الواحدة والشخصية الواحدة ، والتي كان مركزها يسوع الإنسان ، ولكن اللوجوس أعطى لهذه الشخصية خصائص إلهية . لكن لا شيء من هذا يلقي تأييداً في العهد الجديد . ففكرة

الشخصيتين اللتين تصبحان شخصية واحدة ما هي إلا إحياء للصورة المضللة التي تبناها نسطوريوس . وقد ظهرت فكرة أن يسوع الإنسان هو الشخصية الحقيقية ، ويشكل ذاته الحقيقية ، في آراء أخرى متعددة عن المسيح في القرن التاسع عشر .

وقد رأي مؤيدو هذه الآراء المسيح كإنسان أصبح إلهاً من بعض الوجوه، أو على الأقل ، لديه إدراك باللاهوت . وأن رأى العهد الجديد لايمكن أن يكون أكثر اختلافاً ، فكيان اللوجوس كان موجوداً قبل الأزل . إنه كان ابن الله الأزلي الذي أصبح إنساناً .

لكن بلا شك أن اسم البرخت ريتشل (1822 - 1889)(Albrecht Ritschl) هو الأكثر تأثيراً في الفكر الحديث فيما يخص شخص المسيح . يقول البرخت : إن المسيح كان مجرد إنسان ، ولكننا - في ضوء ما عمله - نكون محقين أن ندعوه الله ، لأن هذه هي قيمته بالنسبة لنا . فيمكننا استبعاد وجوده الأزلي ، وتجسده وميلاده العذراوي ، فهذه لا شأن لها بالإيمان الشخصي ومع ذلك فتعاليمه ومثاله وتأثيره الفريد ، كلها أشياء تدفعنا للانضمام إلى المجتمع المسيحي ، فنعيش حياة باعثها الكلي هو المحبة . تختلف هذه الآراء اختلافاً طفيفاً عن تلك التي للمدعو (Paul of Samosata) . ولكن بتأثير ريتشل فقد تسللت هذه الآراء إلى كل أركان العالم المسيحي .

هذه كانت عينة الأفكار التي أثرت في عقول الناس حتى بداية القرن العشرين . وما كان يمكن لأحدها أن يلقي قبولاً لو أن المسيحيين ظلوا خاضعين للكتاب المقدس ، واستمروا في إيمانهم بأن ما يخص شخص المسيح؛ لابد وأن يقرر عن طريق الوحي الإلهي وليس بالحجج البشرية . بمعنى آخر ، كان القرن التاسع عشر هو عصر الهجوم على الإنجيل ، وإعلاء شأن الفلسفة البشرية . وسار التخلي عن الإنجيل ، جنباً إلى جنب مع الانحراف عن إقرارات الإيمان التاريخية .

فالاثنان إما يقفان معاً أو يسقطان معاً ، لأن الأخير (إقرارات الإيمان) هو تفسير للأول (الإنجيل) . وكل هؤلاء الذين ظنوا أنه بامكانهم عدم الإيمان بالإنجيل ورفض إقرارات الإيمان الكنسية ، وفي نفس الوقت الإبقاء على مسيحهم ، كانوا مخطئين بكل

أسف . لم تزد محبتهم نحو المسيح ، بل بالحري بردت . وكان من نتيجة أفعالهم أن عدداً لا يحصى من الرجال والنساء أداروا ظهورهم للمسيح . فقد دخل الارتداد للكنائس في عصر لم يسبق له مثيل في عدم الإيمان . وليس لدى هذا العالم الساخر إلا الازدراء بأولئك الذين يبدون وكأنهم يقبلون مخلصهم ، بينما هم في الحقيقة يسعون لتسليمه لأعدائه ، حتى يرتقوا هم .

**** علم اللاهوت اليوم :***

بمجرد أن تخصب تربة العقل البشري الساقط بالإنكار السافر لكلمة الله، فلا يمكن التنبؤ بالنظريات التي يمكن أن تنمو داخله . وفي عالم اليوم ، لا يزال الحق الخاص بشخص المسيح ينمو في أذهان الكثيرين ويحب في قلوب الكثيرين ، وهذا بفضل نعمة الله فقط . فهذا الحق مثل نبات رهيف محاط بغابة من النظريات والتفسيرات البشرية ، التي تبدو وكأنها سوف تخنقه وتلاشيه من الوجود . ليت الله يستخدم هذا الكتاب في إحياء هذا النبات الرهيف ! وليته يحث الأقوياء والأكفاء على وضع الفأس لتجتث الزوان المعتدي خلسة والمتجاوز الحد !

بدأ اللاهوت المعاصر ، والمتميز عن لاهوت القرن التاسع عشر ، في عام 1919 ، بنشر تفسير للرسالة إلى أهل رومية لكارل بارت (1886 - 1968) . ومما لا شك فيه أن بارت هو أكثر اللاهوتيين تأثيراً في العصور الحديثة ، وقد أثرت آراؤه في الكنيسة في جميع القارات . ونتيجة لهذا ، فقد أصبح اللاهوت المعاصر عالمياً . والآراء الحديثة لم تعد مخبأة في أحد الأركان . فأينما وجدنا ، سوف نواجهها بكل تأكيد .

هناك الكثير في لاهوت بارت مما هو صحيح وهام ، ولكن فكره عن شخص المسيح لابد وأن نتحذر منه . فبالنسبة لبارت لم يكن من الأهمية بمكان إذا كانت الحقائق التاريخية المختصة بيسوع في الأناجيل يجب أن يعول عليها أم لا. فبالنسبة له ، لا يعتمد الإيمان على حقائق تاريخية ، بل على مقابلة شخصية مع المسيح . فمثلاً الحقائق المسجلة عن قيامته لا قيمة لها بالنسبة للمؤمن . فما يهم هو مقابلتنا له شخصياً . وبهذه التصريحات فان بارت يقطع جذور المسيحية من التاريخ ، وبالتالي يدمر أساسها .

وبالنسبة له ، فان حقيقة تاريخية عمل المسيح الفدائي كأساس لبشارة إنجيل المسيح يجب إعادة النظر فيها .

ومع ذلك فقد سلم بارت بأن يسوع المسيح هو الله ، إلا أنه لم يحبذ الاعتراف بتواضع الإنسان يسوع . فقد رفض قبول حقيقة أن المسيح اجتاز حالة من الذل ، تلتها - حسب الترتيب الزمني - حالة المجد والرفعة . وتساءل " ماذا يعني أن نقول عن إنسان أنه أهين أو أذل؟ " . " إن هذا طبيعي بالنسبة لإنسان " . " وماذا يعني أن تقول عن الله أنه تعظم وارتفع ؟ " . " هذا طبيعي جداً بالنسبة لله " . ليس المجال هنا لتتبع المزيد من تعاليم بارت ، فقد قلنا ما فيه الكفاية لنبين أن التعريفات التاريخية بخصوص شخص المسيح لا قيمة لها عنده . واضح أن علم اللاهوت الحديث بدأ برفض ما صدر عن مجمع خلقيدونية وإنكاره .

وفيما عدا الاختلافات الحادة بخصوص الوحي بوجه عام وحقيقة الميلاد العذراوي ، جاء لاهوت إميل برنر (Emil Brunner) (1889 - 1966) مماثلا للاهوت بارت . ثم رودلف بلتمان (Rudolf - Bultman) (1884 - 1976) الذي كان أكثر تطرفاً من بارت ، ولكنه ذو تأثير مماثل له . ومثل سابقيه بارت وبرنر ، لم ير بلتمان الكتاب المقدس أنه كلمة الله الموحي بها بأي معنى موضوعي . وكان جدله الرئيسي يدور حول أن الأناجيل ، لم تعطنا فكرة حقيقية وموثوق بها عن يسوع . فكتَّاب الأناجيل أوضحوا ما رأته الكنيسة الأولى في شخصه . لذا يجب علينا أن نكشف إطار القصة الذي وصفه هؤلاء المسيحيون الأوائل ، لكي نصل إلى ما ورائها ، ونرى كيف كان المسيح الحقيقي . لقد أعتقد بلتمان أن الحقيقة المحضة حول المسيح تقع أساساً في الفقرات التي تسجل تعاليمه، وليست تلك التي تسجل أعماله . لم يشك في أن المسيح عاش في يوم من الأيام ، ولكنه يشك في إمكانية معرفتنا أكثر من ذلك . فقد صيغت المقتطفات الأصلية لتعاليمه ، بواسطة الكنيسة الأولى، في روايات متسلسلة ومترابطة عن طريق تفاصيل تاريخية مختلفة ومتتابعة في الزمان والمكان .. الخ . ولابد لنا أن نسقط كل هذه ونعير كل اهتمامنا للمعلومات القليلة التي تبقى لنا بعد تنحية هذه التفاصيل جانباً . وهكذا تجاهل بلتمان حقيقة أن العهد الجديد بكامله كتب بواسطة رسل المسيح ، أو تحت إشرافهم . لم

يترك لنا بلتمان أية معلومات ذات قيمة نستطيع بها أن نصيغ عقيدة عن شخص المسيح . لقد رأى في شخص مسيح العهد الجديد المجيد الأزلي ، أسطورة ابتدعها المؤمنون الأوائل ، لأغراضهم التبشيرية ، لكنها لا تصلح لرجال ونساء اليوم . ويقول أنه لابد لنا أن نحفر فيما وراء الأفكار والزخرفة التي للكنيسة الأولى ، ونستحضر المسيح الذي نجده عندئذ في صورة ذات معنى وتناسب أناس القرن الحادي والعشرين .

لقد دمر بلتمان أساس المسيحية في التاريخ ، تماماً كما فعل بارت . لقد تجاهل حقيقة أن رسالة الكنيسة الأولى في البشارة تمركزت حول شخص وعمل مسيح تاريخي ، كما لاشى تأثيره تماماً . لقد رفض القوة الخارقة التي كانت للمسيحية التاريخية ونادى بعقيدة من صنعه ، بالرغم من بعض التداخل في المصطلحات .

تحتاج هذه النقطة إلى تنبير خاص . فعلم اللاهوت الحديث ليس انحرافاً عن المسيحية التاريخية أو حتى تحولاً عنها ، فنحن لا نكاد نرى نقطة بداية مشتركة للاثنين ، إذ يختلف الاثنان اختلافاً بيناً . واللاهوت الحديث يستخدم العديد من المصطلحات التي استخدمت عبر تاريخ الإيمان المسيحي ، لكن علم اللاهوت الحديث ، ينفث فيها ، معاني مختلفة تماماً . فهم يدعون أنهم يتكلمون عن الرب يسوع المسيح ، ولكنه مسيح آخر غير الذي أتى ذكره في الكتاب المقدس ، اللهم إلا استعمالهم للحروف نفسها المكونة للاسم . كما أن المصطلحات الخاصة بالعقائد وإقرارات الإيمان التاريخية لا تعني الكثير بالنسبة لعلماء اللاهوت الحديث ، بل ويعتبرونها غير مقبولة ولا يعتد بها ، وكأنها إعلانات من عالم آخر . والعكس أيضا صحيح ، فالدارسون للفكر الكتابي عن المسيح ويعترفون بقرارات خلقيدونية ، يجدون في علم اللاهوت الحديث ما يستحيل فهمه ، فهو بعيد عن المنطق ، ولا يمس وتراً واحداً في القلب ، إذ يتكلم لغة أخرى غير معروفة أو مفهومة .

ومثال صارخ لهذا اللاهوت الحديث هو بول تيلتيش (1886 - 1965) (Paul Tillich) . فالديانة بالنسبة له لا تعني معتقدات مؤكدة أو ممارسات، لكنها النقطة التي تهم الفرد في النهاية . لذا فقد رفض كل الصيغ التقليدية الخاصة بشخص وعمل المسيح . واعتبر أن الإعلان الذي يقول أن " الله ظهر في الجسد " ليس غير مألوف فقط ، ولكنه

غير معقول أيضاً ، وما كانت القصص التي في الأناجيل بالنسبة له إلا أساطير خرافية ، ولا أهمية لقيامة المسيح . وما يهم في الأمر ليس إن كان المسيح قد قام من الأموات أو لم يقم، ولكن استعادة كرامته في أذهان تلاميذه . وبالنسبة لتيلتيش ، فلم يكن المسيح شيئاً في حد ذاته ، ولكنه كان مهما من حيث كونه الرمز الذي فيه هزم انفصالنا عن أساس وجودنا .

يستطيع المؤمنون البسطاء فهم وإدراك ما يقوله الكتاب المقدس عن المسيح ، ويمكنهم أن يميزوا قيمة إقرارات الإيمان القديمة ، ولكنهم لا يستطيعون فهم هذه الآراء والأفكار الحديثة . وكما أن كتابات أوسكار كولمان (Oscar Cullman) (1902) ، أكثر قبولا وفهما بالنسبة لهم ، ذلك لأنه كثيرا ما استشهد في كتاباته بالكتاب المقدس ورجع إليه في دراساته . ومع أن أبحاثه أعطتنا إدراكاً قيماً لكريستولوجيا (علم دراسة شخص المسيح وعمله) العهد الجديد ، إلا أنه يرفض أن يعطينا تأكيداً بأنه يمكننا أن نجد فيه وصفاً موثوقاً به تماماً ومقبولاً لحياة وتعاليم يسوع ، كما يقر على أن العهد الجديد لا يحمل بين طياته اهتماما حقيقيا بتوضيح من هو المسيح ، وماهية شخصيته ، وهكذا يفهم ضمناً أنه ينكر لاهوت المسيح .

ومما لاشك فيه أن كولمان لا يعنيه أن يبرز المسيح كمشارك في حياة الثالوث الإلهي . خلاصة القول ، يتضح مما سبق أن المسيح الذي يتكلم عنه كولمان ليس هو المسيح المذكور في الكتاب المقدس ، الذي نحبه ونعبده .

ترى كم من مسحاء قدموا إلينا في أيامنا هذه ؟ ! (ديترتش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer) (1906 - 1945) مثلا ، أطرى على ما اسماه " الإنسان الذي عاش للآخرين " (The man for others) ، بينما جون روبنسون John Robinson(1919 - 1984) في كتابه الأكثر مبيعاً بعنوان " الأمين لله" Honest to God يخبرنا عن شخص بمثابة النافذة الفعالة إلى الله .

وأخبرنا الفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead (1861 - 1947) وحلفاء " اللاهوت العملي " process theology عن شخص هو الإنسان الوحيد الذي عمل الله فيه ، ولكنهم أنكروا صراحة فكرة أنه الله المتجسد . أما بيير تيلارد دي شاردين Pierre Teilhard de Chardin فقد ابتدع مسيحاً ، هو الأساس الداخلي وتحقيق عملية النشوء والتطور . ثم يأتي جيرجن مولتمان Jurgen Moltman المولود في سنة (1926)، بمسيح عبارة عن شخص نذكره من آن لآخر ، وينكر قيامته الجسدية ، ولا يقوم عليه تعليمه الذي يعرف باسم " لاهوت الرجاء " .

ويخالفه في الرأي وولفارت بانينبرج المولود سنة (1928) Wolfart Pannenberg ، ويعلن للعالم أن المسيح بالحقيقة قام من بين الاموات . ولبرهة تختلج قلوبنا فرحاً ، ظانين أن أحد أبطال الإيمان الرسولي قد ظهر، ولكننا سرعان ما نغرق في الإحباط عندما يتحدث بانينبرج عن مسيح غير معصوم من الخطأ - عندما يخطيء الظن بأن قيامته سوف تواكب نهاية العالم وقيامة كل المؤمنين .

إن ألوفا من الأصوات في صالون علم اللاهوت الحديث تنادي بعدة آلاف من النظريات في بلبلة لا تنتهي . وحين يسمع العالم الخارجي كل هذه البلبلة ، ولا يجد صوتا واضحا جازما ، فإنه يسد أذنيه ويمضي في طريقه بعيداً . ومن القليل الذي استطاع أن يلتقطه ، استنتج أنه ما من أحد متيقن إن كان للمسيح وجود أم لا، ولكن أيا كان الأمر ، فالمسيحية عبارة عن إتباع مثال المسيح . وقد قادت الأنشطة الكنسية العالم ليظن أن إتباع مثال المسيح يكون في الانغماس في النشاط السياسي أو الاجتماعي بين الفقراء . وهكذا يهلك العالم بدون تذكرته بتعدياته على خالقه القدوس وديانه . ويجهل العالم أيضا أن في الله الإنسان مخلصاً كافياً للتائب .

لقد حان الوقت لهؤلاء العارفين الحق أن يرفعوا أصواتهم عالياً حتى تخفت أصوات علماء اللاهوت الحديث وتبدو كالصمت . فكلمة الله واضحة تماماً بخصوص شخص الرب يسوع المسيح . وقد لخص هذا الحق ببراعة في إقرارات الإيمان القديمة . ونستطيع أن نعلن للعالم بنبرة واثقة وغير مهتزة بأن " ابن الله ، الأقنوم الثاني في

الثالوث ، هو الله الأزلي نفسه ، ومساوٍ للآب في الجوهر ، ولما جاء ملء الزمان ، اتخذ طبيعة البشر ، بكل خصائصها الأساسية وضعفاتها العامة ، لكن بلا خطية : وحبل به بالروح القدوس في أحشاء مريم العذراء من جوهرها . وهكذا اتحدت طبيعتان كاملتان ومتميزتان، الإلهية والبشرية في شخص واحد ، بلا تحول ولا اختلاط ولا امتصاص . هذا الشخص الله الكامل والإنسان الكامل لكن مسيح واحد ، الشفيع الأوحد بين الله والناس . (اقرار ويستمنيستر ، الثامن ، 2) .